غانم الدباغ

الليل الدبق

— ١ —

(.. ماذكره من ذلك الليل ، ان القمر يسكب نوره بسخاء على ارضية السطح ، فينسفح على زاوية منه ، وان زوجتي نزلت عن سريرنا المشترك لتنام على الارض مع الضيفتين اكراما لهما ولياقة ..)

اسأل ماأقرأ كل يوم .. لماذا وضعت الاخلاقيات ، ومتى كان البدء بها .. ! ما الرغبة وكيف نخنقها ، ونحن نبعها ، وطوفان الافكار القديمة لم ينقذ الاحلام من الغرق في دنس الفكرة ، فكبرياؤنا تشمخ في نكران احمق .

— ٢ —

(.. قبل صعودي الى السطح ، سكبت ثمالة الكأس في المغسلة مرددا في خاطري انها الاخيرة ، وسحقت بقدمي عقب الدخينة بعنف، وزهو القمر فيالسماء الصافية بسلط على قدمي شللا ، فاخطو بحذر كمن يخشى ان يطأ مقدسا او لاكذب في الصباح مدعيا اني نمت مبكرا ..)

الغزاة كانوا يهرعون بالجواري ، اغصانا لانتصارهم ، والتاريخ لم يتحدث عن بداية التسري ، ومنذ متى بدأت الفضيلة .. ولماذا عاش امرؤ القيس وعمرو بن ابي ربيعة وأبو نواس حياة النعماء يتخللون سراويل الجواري والقيان على الزرابي المبثوثة .. انها تلطم اكذوبة الفسق في عصرنا ..

— ٣ —

(.. تنفس سعاد ، أمزه بوضوح ، انه يتسلل مع ارهاف حواسي نحوها ، وانا ارهب صمت المكان ، وفي ينسحق توتر يحكي قلقا مأزوما من خلال تحديقي في اجسام زوجتي وسعاد وامها ... اطرافهن مسترخية باهمال ، وهي ترسم منحنيات وزوايا تتلاقى تحت الاغطية الخفيفة المدعوكة بينهن ..)

متى كانت الانثى المختارة هي نهاية الرغبة ؟ .. هل مسح القدم كل طبقات المجتمع ؟ ان الكآبة التي توحي بها السقوف الواطئة ومواخير البغاء ، ومنازل التفريخ البتري ، اهي الهروب من سقم الفراغ ،ام هو الحل البائس ليقين يطاول الحقيقة وهي تسفر عن وجهين ، أشدهما زبفا ما تدعيه المدنية لتكبحنا ، ثم تترك نوازعنا الاولى دفينة كسراب ملحي يذوب اذ تطفى الطبيعة ، فلا يلجمها الا خداعنا لانفسنا ؟

— ٤ —

(... انكأت على الجدار الواطىء هنيئة ، لاجر بعدها خطاي بحذر نحو السرير الفارغ ، شادا جسمي ، محاذرا هز اسلاك السرير تحت ثقلي .. وكعادتي في بداية رقادي ، ارفع صفحة وجهي تحت كفي ، رأيت المجال الداكن أمامي ينتهي عند شبح سعاد المستلقية بين امها والزاوية المغمورة بالنور ..)

رأيتنا ، نحن الذكور .. ننبش كل يوم في حسنا الداخلي ، فنقتلع قشرة القداسة الزائفة للعلاقات البشرية التي لايشذب طاقتها المكبوحة ونحن في قمة المعاصرة العلمية الا انكفاؤنا على ذواتنا ، فلا تتبقى فينا سوى قوة الفناء .. وتكرار الوجود في دهرية متتالية ..

— ٥ —

(... فتحة البراءة تنشق عن فمها وهي تنفث انفاسها الهادئة وتمتد ساق لها ، خمرية ، يبين الضياء الشاحب لونه بوضوح ،ويترك ظلا قاتما على نصفها الاخر . يدمع التحديق حدقة عيني ، فتنز كبعج الدم من مقلتي ، وقتامة اللون في القماشة المتغضنة يبدو حزا يحدد كتلة الفخذ المسترخية وقد انزاح الغطاء تماما عن الثانية ..)

يقينا ان النواح العبقري لـ (تشايكوفسكي) في فورات المه ، ومنطلق العذاب المبرح في عناق (بودلير) الرجيم لعواطف البغايا في (مونمارتر) لا تلتقي مع شبق (بارون) الى (اوغسطا) ، فهي معادلات تتناقض صعودا وهبوطا ،يصمها المؤرخون بلوثة جنون،والبحث عن معطيات خرافية للفن الذي تجذر شموخه في حضارة اليوم .

— ٦ —

(.. انزلقت الى اسفل الفراش محدقا في السماء ، وقد طمس القمر بريق نجومها .. لم تكن ثمة فكرة أخرى تشغلني ، فانقلبت الى وضعي الاول ارهف سمعي الى تتابع ملحن لقطرات حنفية الماء في

المفسل ، يتناغم وانفاس سعاد عبر امها في متتابعة موسيقية يقود اداؤها لهاثي الخافت ..)

وهل يزيح الستر عنا في مقولة (فرويد) ..ان عالما بدائيا يعيش بهيميته في داخلنا اللاواعي ، تكظمه الحضارة وتدلف به الى مغاور الكبت ليحتال ضاريا معنا في الاحلام ، فهو قابع يستهزيء، ساخر يقهقه .. يلطم جدار لحمنا الواهي .. لينفذ من خلال سجيل ما ، قد نغمض عنه العين .

— ٧ —

(.. واذ يطل ربيعها الخامس عشر من المكورين ، ينسحق احدهما تحتها وبرعم الاخر يندعس لينا فوق الفراش ، ولمع من طفولتها القريبة تتداعى الى خاطري ..فبالامس كنت اداعب فيها ختل المراهقة وارهافها ، اسألها : ما هذا الذي ينمو في صدرك ، فتصرخ ، وتضرب ، وتشتم فاقذف بها نحو السقف ، لينة ، خفيفة ، لتمسك بالمروحة ، وتفض وهي تهوي بضحكة يتجمع في سمعي الان صداها المكرر بنغم عذب ..)

هل خلقنا المصير ! ام ما يزال حتف انوفنا ..اكراه وتمزق وطرائق يلفها المجهول لتدمي القلب الانساني ونفسله حتى الشغاف باللهفة الدائمة . ام ان هذا المعطوب فينا ، هو اللحم يدق حساسية الرغبة الخطرة ، ليزهق تطلعها الى المطلق ..

— ٨ —

(.. اطل شبح قطة تتسلل على سور الجدار الواطيء ، ليعكس تيار الوعي فيذهني لاتابع حركات هذا الحيوان الساهر طوال الليل .. صدرت عنه هرهرة خافتة ، وتوقف فوق الزاوية المقيمة ، نطلع نحوي بعينين حذرتين تلتمعان .. ولما اطمأن الى جو السكون ، أقعي على قدميه ، وبدا يلحس يديه ، ويمسح بهما فروته ..)

يبدو ان نسر المعرفة الذي عاش على كبد (بروميثوس)ما زال مجهولا وهرقل الجديد لما يأت بعد .. او انه جنين ينمو في ضمير العصر ، فالمعاناة هائلة تبد يالاشياء ، وتخفي المعاني ، فهل نختبيء نحن ضمن اسطورة الزمن ؟ ان كل مافينا غامض ومثير ..

— ٩ —

(.. تململت .. فاهتزت اسلاك السرير واجفلت القطة ، وكفت عن عملية التنظيف وهي تتطلع بتحفز اتجاهي ، ثم قفزت نحو السلم ، وانقلبت الام على جنبها الاخر فغاب وجهها في العتمة ، وحين هدأت حركتها ، عاد شخيرها يملأ اذني ..)

كالنوم واليقظة ، ورفض الالم ،وغريزة الحياة ،وغموض المجهول والحنين الى الطفولة ، كاستحالة الخلود ، ونمو الوعي فينا ينفتح كتبرعم الزهور ، كعزف (اورفيوس) على اوتاره .. ننهج دروبنا في الوجود ، كسببية العدم والفناء .. ازمنتان تعللان ماهية الانسان ، فمنطوق الوعي ، هو السراب ، وما خلاه لاشيء ..

— ١٠ —

(... تخيلت ان عينا لسعاد مفتوحة ، وانها اخذت عن حرص الذئب خلة المستوطن الاول من اجدادها في الغاب .. ام لا ..! فما هو الا هدي الغريزة في الغمر الغرير وصح تصوري حين نثاءبت ثم اتكأت بمرفقها على الوسادة وتمتمت بشيء ، فخلتها تحلم او تهذي في نومها ، كانها تردد اسمي خلال لغطها الذي طفى شخير الام عليه ، ثم رمت برأسها على الوسادة ، في حين غرق الليل في السكون من جديد .. عندما انقطع شخيرها فجاة ..)

تقول الاديان ان الكون خلق في سبعة ايام ، وكان اليوم السابع لراحة الخالق الذي جبل الانسان على صورته ،لكن انطلاقه نحو الارض جعل له سمانها دون صفات السماء ، وانتهى عندها مفهوم الدنس والفضيلة ، وأقام المقننون الحدود ما بينهما ، والنهب عذابه بين ماصور خيرا وما اعتبر شرا ، هل نسي هؤلاء ان يريحوه على صفة الاله فيبترد بالراحة يوما من تسمية الخير والشر ... فكلاهما رغبة .

— ١١ —

(... انسعت دائرة الضوء المسفوح على وجه سعاد ، وانزاحت ظلال العتمة عن النصف من وجهها حتى مفرق شعرها ومنتصف جبينها، سوى ان محجر عينيها كان بعيدا عن الرؤيا الواضحة ، لان ظل المحجرين كان يسقط بقتامة فوق العين .. وهبت نسمة فازاحت الغطاء الخفيف الذي كانت الام قد اسبلته على سعاد ، فتعرى جزء من ركبتها يستقبل فيضا من شعاع القمر في حين التمع من عيني شعاع اخر شدني الى رضفة الساق الذهبية ..)

قال القدماء ، ان المرأة وعاء تنصب فيه الرغبة ، وان الجنس ماهو الا وسيلتنا الى التكاثر والبقاء ، وقدست الكهانات المندثرة جسم المرأة فنصب منه ـ كمصدر تنبع منه الحياة ـ آلها ، ونسبت عن المسيح مقولة دنس الانسان لانبثاقه جسما وروحا عن محتوى قد ترتفع فيه الخطيئة اذا لم يلجمها نقاء الضمير ورادع العرف الخلقي ، وكون المطلق تهويما سائبا لا يخضع لارادة ما ، فالانسان ضمير متعب ، سيبقى رضيع التجربة ابدا ..

— ١٢ —

(.. ارتفعت من قلب السكون غمغمة خافتة ، خلت اولا ان زوجتي تهذي كعادتها في النوم ، الا ان الشعاع المفنط الذي كان توترة يشدني الى جسم سعاد المسترخي دلني على حقيقة ارهاف الحس لدي ،لقد كانت سعاد تردد اسمي ..! أكان ذلك في نومها ، ام انها يقظة .. خالجني احساس مباغت بالاندهاش ،واوشكت ان اقفز من سريري ..)

سيان لدى الانسان ان تربطه القداسة الى الخضوع ،اوتحطه الغريزة الى منزلة الحيوان ـ فكنوز الحياة دفق لاينضب ، واذا هدمت روحه صعدا ، فكبرياؤه يحطها سيل تنشق عنه الرغبة ، تجرف كل شيء ، الا الذات ، فهي صنيعتها الام ، واذا وشت النفس بالفضيلة فما هو الا العجز تطوبه سورة من الاحلام ، خدينها ، ان لا معرفة بالحياة تعلو معرفة النفس ، ومقولة (سقراط) هي الانجيل الذي صعد بالكائن البشري نحو الافلاك .

— ١٣ —

(... نبا صوت الام ، تسأل وفي نبرته خثة النوم :

ـ عيني سعاد .. تريدين ماء .. ؟

لم تجبها ، فعاودت الام رقادها بعد ان سوت الغطاء المنزاح عن جسمها ، ثم ارتفع غطيطها بعد حين ، وادرت راسي نحو السماء محدقا بالقمر من جديد .. وهبط سعار الرغبة ينكمش مرتعشا في داخلي ،غير ان حواسي كانت هناك .. تصلها ذبذبات متقطعة بالجسم المستلقي تحت اشعته ..)

هل صور مؤلف (حي بن يقظان) جفاف الحياة عنده ، وقد انقطع عنه رافدها الاول ، فهو في خواء ، رغم سعره لفور المعرفة وفلسفة الوجود ام كانت جزيرة نفسه يحيطها لهب الرغبة ؟ هل هرب واضعها الى الخرافة كما نهرب اليوم من حقائقنا البيضاء وهي تنخر في نفوسنا .. وغلواء الرياء يصد نصوعها ، فتسبقنا العتمة ، وخليفتنا وهج بضيء ، فلا نراه الابصار لانه يغشاها .

— ١٤ —

(... استرجعت في غفوتي لذاذة انكاء سعاد علي في النهار ، وهي تجتاز باب الصالون نحو الحديقة ، وكذبت عيني اولا ، لكنني بدأت استعيد الموقف جيدا ، فقد كان جسمها اللدن الملفوف يتمسح بكتفي وهي تكاد ترتمي علي ، وانباني بريق عينيها خلال اليومين اللذين قضتهما هي وامها عندنا ، ان براءة تعلقها الطفولي بي ، ينمو الان شغفا واعيا لاطاقة لها بامساكه ، وعاودتني مرة اخرى وبجنون فكرة القفز اليها ، عبر الجسمين الراقدين بجانبها ..)

بوكاتشيو في الـ (ديكامرون) ومؤلف (الف ليلة وليلة) المجهول نشرا امام الانسان صورته من الداخل ، تعربد فيها الشياطين حية كالحقيقة ، موهبتها الحياة ، وكل قصورنا عن الادراك يستتر وراء خدعة نلف بها كينونتنا الغافية على فراغ ما نسميه بالتقاليد ، وسيوف (دون جوان) و (كازانوفا) تمرغها بالتراب ، وتعري نفاق البشرية الاصيل .

— ١٥ —

(.. دقت ساعة الصالون الواحدة بعد منتصف الليل ، وكان القمر — كمهدي به — يبتسم وهو ينحدر باتجاه الافق الغربي ، فبدأت الظلال تعمق عند الزاوية ، حيث مرقد سعاد ، وغاب شقها الايمن معتما ، الا ان صفحة خدها وغدائرها بقيا في فسحة الضوء ، وقد دفعت ساقا عبر الغطاء الابيض الخفيف اثد يكان بحركه النسيم ، وتقلبت خلال لحظة ، مرتين أو ثلاثا ....)

تريح اوربا صدرها الان فوق بحر من اللذة ، لتقول انها قضت على مايتحكم في الانسان من عقد نفسية تعيق دولاب الحضارة ! واضحى الجنس وجبة يومية يتناولها المرء أنى شاء ، لا تطاله يد القانون ، بل وقد تحميه .. وامسى معنى الفحشاء التقليدي نادرة يرويها التاريخ .. هل كان شرق الجواري وعصر السبايا الاالوجه المحسن لاوربا اليوم ..!

— ١٦ —

(..لملمت بعضا من اطراف شجاعتي ، وهمست باسمها ، فسمعت صوتي يخرج ميتا ، فهمست ثانية وبوضوح ، مرهفا سمعي، موسعا حدقتي عيني نحوها .. فرأيت راسها يرتفع عن الوسادة ببطء ، ثم تتكيء بمرفقها عليها ، وابان الضوء الذي سقط عن ملامح شبح ابتسامة فيها عجب وتساؤل ، مالبث ان اتسعت على ثغرها الدقيق ، فاهتزت في نفسي غبطة فرح هائل يجلله الخوف ، لكني اشرت اليها بيدي نحو السلم فهزت راسها رافضة ، ثم عادت تسترخي على الوسادة ، وهي تحدق بي ، عاودت التلويح ، فادارت وجهها نحو الجدار ، فغمر كيانها كله الظلام ..)

قالوا : ان المرأة اذا ارادت تمنعت بقوة تعادل قوة الرفض الذي بيديه ، والحدس في انك اذا سعيت اليها دؤوبا فستهرب ، واذا تركتها تطاردك ، فرضية تعادل جبرية لامر ، وتأخذ معادلة الصراع هذه ، ابعاد كل صراع نفسي يذل له الانسان . وحول معاني التمنع والابتذال ، دارت كل القيم الخلقية حول المرأة ، وفي ان تكون هي القيمة الفرد .. ام ان تكون ضلع آدم المخلوع .. رغبتها تعني (هو). و (هي) تعني الفناء والاحتواء ابدا في شمس الرجل ..

— ١٧ —

(.. دقت ساعة المنزل الثانية .. وبدا القمر يختفي وراء جدار السطح المجاور ... وزحفت عتمة الجدار تغطي الاجسام الثلاثة ، وفجأة استوى شبح سعاد قاعدا وهي تتلفت صوب امها ، ثم نهضت واقفة . غمغمت الام :

— هـا !؟

— سأنزل الى ..

وخطت مسرعة الى السلم ، محتكة بحافة سريري ، وانتظرت برهة ريثما تعاود الام شخيرها ، فانزلقت بهدوء من فوق السرير محملقا في الشبحين الراقدين قربي بحذر شديد ، ومن اول درجات السلم رأتها في اقصاه ملتصقة بجدار عند منعطف السلم نحو الباحة الصغيرة المعتمة حيث يبدأ عندها السلم الثاني المؤدي الى صالون المنزل ..)

اي هتاف يضج به القلب عند دفق الحب ، واي معين يندفق عند الشعور بمتعة الغرابة ... صنوان هما .. الحب المحرم ، ونقيضه السأم ، اذ يدق نبضه المألوف ، فيصفع كل يوم وجها عاريا، وصخب الحياة فيه هو توقع الموت اليومي في ترديد مزمن وجفاف صحراوي يلغ في الدم ، يأكل الساعة التي مضت بالامس لتموت اليوم ، وتسحق كل معنى ، لتنمو الهوة المرعبة .. الرغبة ..! ام الطبيعة ، وليدة الحياة .. الزمن عدوها ، ومكانها اللامكان ..

— ١٨ —

(.. غيبت وجهها الطفل بين ذراعي ، ونحسست كل نتوء وفراغ في جسمها وهي ما تفتأ تردد :

— أمي ..! زوجتك ! ستستيقظان ..

لكن جهدها للتملص من بين ذراعي كان واهيا ، وما لبثت ان همدت وارتخت كل عضلة فيها مستجيبة للامساتي ، وكنا نبدو في العتمة كتلة واحدة سوداء تتحرك تحت الجدار الذي اخفانا ..

في خلال ثوان .. دقت في اذني ثلاثة اصوات متنافرة النغم ، تتابعت بسرعة مذهلة ، كان من بينها صوت سعاد النافرة من احضاني :

— ماما ..! -

— ر .. .. .. سو ..

— سعاد !؟

شخصت عيني الى اعلى السلم احدق في اشباحهن الثلاثة .. طويلة .. غاضبة .. معتمة .. وهن يطاردن القطة ..)

حين تطلعت الى القمر في افوله الاخير .. كنت خجلا ، وكان هو يبدو كبيرا وكئيبا .. لقد غاضت ابتسامته وهو يغوص وراء جدار السطح المجاور ..

بغداد